محمد كرد علي
من خلال المقتبس

الدكتور شكري فيصل

— ١ —

تقع مجلة المقتبس من حياة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي موقع بداية الشوط في مضمار واسع قطعه هذا الفارس على مدى ثمانين عاماً مباركات أو تزيد، لم يتوقف — أو لم يكد يتوقف — خلالها عن العَدْو وراء غاياته البعيدة.

والحق أنها لم تكن غاياته في نفسه فحسب، ولكنها كانت غاياته في أمته .. فلم يكن بينه وبين أمته هذه الفواصل أو الستور .. فتح لها قلبه، وقصر عليها عقله، ونذر لها جهده، وظل حياته كلَّها يتحرق شوقاً إلى مطامحها، ويتحرك قدماً نحو تطلعاتها.

ولم يكن في حياة كرد علي حَدَثٌ دفع به واندفع هو به، وأنشأه ونشأ به، ولوّنه وتلوّن به، كما كان حادث إصدار المقتبس في القاهرة في هذه الفترة المبكرة من حياته وهو يغادر الثلاثين، فترة اكتمال الفتاء، ووضوح النّماء، وجمال التفتح.

— ٢ —

وإذا كان هذا موقع المقتبس من حياة كرد علي فإن لها كذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الموقع المتميز في حياة الجماعة العربية التي كانت تمضي في أول مراحل طريق النهضة .. كانت بدأت تُحس وجودها المغبون في بعض جوانب الحياة : في حياتها اللغوية وحياتها الثقافية دائماً ، وفي حياتها السياسية أحياناً .. وكانت تتطلع إلى وجود جديد يضع العرب في مكانهم من المشاركة والمساهمة ضمن المجتمع العثماني الكبير الذي كانوا يعيشون فيه .. ، وكانت بدأت تتململ .. وكان في إيمان جماعاتها وجمعياتها والمصلحين الذين أخذوا يرفعون الصوت فيها أن العلم وحدَه هو سبيلُ الجماعات إلى وجودٍ صحيح سليم ، وأنه لا سبيل إلى هذا العلم إلا أن يتصل ما بين ماضي العرب وحاضرهم .. تُشاع الحياة في هذا الماضي وتضاء جوانبه ، ويُحيى تراثه ، ويُعرَّف أعلامه ، وتدخل لغتُه دورةَ الحياة حتى تكون لغة الحياة . . ثم تُشتق الطرق إلى المستقبل الذي يضع العرب في مكانهم من الإسهام الحضاري والمشاركة الإنسانية .. على الخلاف الذي كان ، بين أن يتم ذلك في وجود عربي مستقل ، وبين أن يكون ضمن المجتمع الكبير الذي كانوا أبعاضاً منه .

وإنما كانت تعمل المقتبس من أجل هذه النهضة الفكرية وتتحرك بها ولها .

- ٣ -

ومن التقاء ما بين موقع المقتبس من حياة كرد علي وموقعها من حركة النهضة العربية العلمية تتخذ هذه المجلة الرائدة سماتها وشياتها ، وتكتسب صبغها المميّز ولونها الخاص ، وتتحرك على محاور ، بعضُها هذه المحاور مما كانت تشاركها فيه المجلات الأخرى وبعضها مما تنفرد به ، لا يشاركها سواها أو لا يكاد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتستطيع أن تنظر في المجلات التي كانت تعاصر المقتبس من مثل المنار والهلال والمقتطف .. وستلاحظ أن صاحب المقتبس كان يريد أن يشارك الآخرين في بعض ما يتجهون إليه .. ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه حريصاً على أن يتفرد وأن يتميز .. بعض هذه المجلات كان يغلب عليه الطابع العلمي أو السمة الأدبية أو النزعة الإصلاحية السلفية .. ولكن أيّاً من هذه الطوابع لم يكن يستبد بالمقتبس أو يغلب عليها . . فقد فتحت صفحاتها لهذه الأشياء كلّها ولكثيرٍ غيرها ، على اختلافٍ واضح في حظوظها من الاهتمام وأنصبائها من الرعاية .

ولم يكن ذلك عملًا عفوياً وإنما كان عملًا مقصوداً .. كان المنطلق والهدف في آنٍ عند كرد علي « السعي في سبيل الإفادة والاستفادة » كما قال في خاتمة السنة الأولى . . وهل هنالك حدود محدودة لهذه الإفادة والاستفادة ؟ .

— ٤ —

هذه المزاوجة بين جملة من المحاور التي سيتحرك عليها كرد علي في المستقبل ، تتمثل في هذه السلسلة من الثنائيات :

ا — هنالك في البداية هذه المزاوجة بين الماضي والحاضر : الماضي العربي الذي يستحق الإشادة به ، والوقوف عنده ، والإفادة منه ، والحاضر العربي الذي يحتاج أن يُعالَج ويُداوى .

ب — ثم تكون هذه المزاوجة بين الشرق والغرب : فللشرق روحه وتقاليده التي لا يستطيع أن يخرج منها ، وللغرب نهضته ومدنيته التي لابد من الإقبال عليها والأخذ منها .

ح — ووراء ذلك هذه المزاوجة بين اللغة العربية واللغات الأجنبية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلغتنا جزء منا ، ولكن حاجتنا إلى اللغة الأجنبية جزء من التمهيد لمستقبلنا .

د — ثم تكون عند كرد علي بعد ذلك هذه المزاوجة بين القديم والجديد : القديم لأنه آية قدرتنا على المشاركة الحضارية ، والجديد لأنه هذه المشاركة الواجبة .

هـ — وبعد ذلك تكون هذه المزاوجة بين العلم والأدب : الأدب بمعناه العريض هو الذي يغلب على التراث العربي وهو الذي يشغل أكبر الحيز فيه ، على حين أن العلم هو الذي يشغل أكبر الحيز في ميدان المعارف الإنسانية المعاصرة ، ويشكل قطب اهتمامها .

بل إننا لنلمح هذه المزاوجة في جزئيات من هذه المحاور . . ففي نطاق الأدب العربي كان كرد علي كذلك حريصاً على أن يبتعث العرب أدبهم كله .. أدبهم الذي قالوه في المشرق وأدبهم الذي قالوه في المغرب .. ولذلك كان من جهده أن وقف وقفات طويلة عند ابن حزم وابن زيدون على نحو ما وقف عند الجاحظ والقاضي الفاضل .

وفي نطاق الثقافة الغربية كان كرد علي يقرأ الفرنسية ويترجم عنها ويقبس منها كثيراً من المقالات .. ولكن مجلته لم تصنف لهذا المورد وحده وإنما كان حريصاً ، فيما يبدو ، على أن تكون هنالك ترجمات كثيرة عن اللغات الأخرى : مقالات عن اللغة الانجليزية ؛ وملامح من ملامح المجتمعات الأميركية في شعر شعرائها أو أدب أدبائها .

وحين كانت حركات الإصلاح تتطلع حولها هنا وهناك تلتمس النموذج أو الأسوة ، كان أمام كرد علي فيما تقودنا إليه مقالات المجلة مثلان يلح عليهما : أحدهما من اليابان هذه الدولة الشرقية ، والآخر من أمريكا هذه الدولة التي لم تكن قد انزلقت بعدُ في مهاوي التحيز ، ولم يكن يعرف العالم منها إلا قسمات وجه بريء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ٥ -

وأحسبني - في رصد هذه المزاوجات - دللت على طابع أساسي لا في مجلة كرد علي فحسب ، بل وفي حياة كرد علي كلها .. ولعلي لا أخطىء إن قلت إن هذه الثنائية أيضاً يمكن أن تستقطب على نحو أو آخر ، شخصية كرد علي ، في الذي كان من مواقفها أو آثارها أو سلوكها .

أكان ذلك ضريبة العصر الذي كان كرد علي فيه ، عصر التحولات.. أم كان أثراً للنزعة العلمية المتسامحة التي كان يتحلى بها والتي كانت تقود إلى مثل هذه الثنائية المتوازنة ، لأنها كانت لا ترى أنها وحدها صاحبة الحق المطلق ، وأن الحق مشاع على حد تعبير كرد علي في واحدة من مقالاته .. أم هما الأمران معاً تقدما بكرد علي نحو هذه المواقف المتكاملة ؟.

- ٦ -

وقبل أن أمضي شوطاً آخر في دراسة الخطوط العريضة للمقتبس ومعرفة هويتها والكشف عن أبرز ملامحها ، أريد أن أقول إن المقتبس مجلة من نوع خاص .. ليست هي مجلة كرد علي لأنه هو صاحبها فحسب ، ولكنها مجلته لأنه هو الذي كان يشرف عليها ، ولأنه هو الذي كان يختار أبوابها يضيف إليها حيناً ويحذف منها حيناً آخر ، ولأنه هو الذي كان يعدّ الكثير من مقالاتها .. كان يكتب المقال مرة ، ويترجمه مرة ، ويقبسه مرات أخر .. ولأنه هو الذي كان ينسج صفحاتها سطراً بعد سطر مما يفكر فيه أو يتحدث عنه أو يحاور حوله أو يقترحه ويراه ويسمعه .

وإنك لتلاحظ واضحاً أنه كان هو المحرر وكان المترجم ، وأنه إذا استعملنا مصطلحاتنا المعاصرة ، كان مجلس الإدارة ورئيس التحرير وكان المخرج ، وأخشى أن أقول إنه كان كذلك المصحح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعنى هذا أن المقتبس كانت هي فكرة كرد علي وكانت عمله .. أقدم على إصدارها لا يملك إلا قلمه .. ولعله كان يتطلع من وراء الغيب إلى بعض الأقلام التي تساعده .. ولذلك لم يكن عجيباً أن يتلاقى في الصفحة الأولى من العدد الأول هذان المقطعان :

أما أحدهما فهو هذه الضراعة الحارة التي تعبر أصدق تعبير عن تهيُّب هذه الخطوة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ إليك المفزع وفيك الرجاء ومنك الهداية

فاحلل اللهم عقدة من لساني وعلمني بالقلم ما لا أعلم

كما علمت عبادك المخلصين واهدني صراطك المستقيم »

وأما الآخر فهذا التطلع المؤمل من خلال هذه الدعوة الصريحة :

« فليتفضل مَنْ أوتوا حظاً من العلم ، فكان همُهم نفع الإنسان من حيث هو إنسان وخدمة المعارف لأنها مشاعة في الأمم نافعةٌ للعمران ويمنّوا عليها من فيض قرائحهم وثمرات أبحاثهم » .

وما بين هذين المقطعين وما بعدهما كان التعريف بالمقتبس ومذهبها الذي ستذهب فيه .

— ٧ —

ولكن السؤال الكبير هنا : كيف كان يعمل كرد علي في المقتبس ؟ كيف كان يطمع إلى إقامتها وحدَه ، والعهدُ بالمجلات أن ينوء بها العصبة أولو القوة ، وكرد علي يصدرها في القاهرة وهو بها حديث العهد ، ليس حوله أحد من أهله الأدنين ؟

ا ـ إذا تجاوزنا السجايا الأخلاقية الرفيعة التي تتمثل في عزيمة كرد علي الطموح وإرادته العنيدة .. وذهبنا نتلمس طرائق كرد علي في العمل على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إصدار مجلة في رأس كل شهر تنهض لهذه المجلات الأخرى ذات الجذور الغليظة في القاهرة ، كالمقتطف والهلال والمنار ـ وجدنا أن كرد علي كان قدرة عجيبة على القراءة والعمل .. كان يكثر من القراءة ، وكان يفيد من كلّ ما يقرأ .. كان يقرأ بالعربية كما يقرأ بالفرنسية والتركية ، وكان يقرأ المطبوعات كما كان يقرأ المخطوطات .. ومن كل ذلك كانت تستوي له بعض البحوث ، أو يوحى إليه ـ أريد يلهَم ـ بعض المقالات ، أو يندفع في طريق الاقتباس والترجمة .. قراءاته هي التي كانت تثيره ، وهي التي كانت تفتح الآفاق من حوله .

إن كرد علي يعترف بذلك ويدلّ عليه بنفسه ، وبمثل صراحته .. فهو ينشر مثلاً مقالاً بعنوان : « فتيان يؤلفون »[1] فمن أين وقعت له فكرة هذا المقال ؟

لنستمع إلى كرد علي يحدثنا عن ذلك فيقول :

« تناقلت الصحف الدورية في الغرب هذه الأيام رأياً للمسيو إميل فاغي Emile Faguet من رجال العلم في فرنسا وأحد الأعضاء الأربعين في المجمع العلمي الباريزي قال فيه : [إنه لا ينبغي للكاتب أن ينشر ما كتب لينفع به الناس قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ـ وأرجو أن تذكروا أنه كان آنذاك في الثلاثين ـ وما هو ، قبل هذا السن ، إلاّ معلم نفسه وممرّنُ قلمه] .

هذا الكلام الذي قاله مجمعي عريق في الغرب أومض في رأس كرد علي في الشرق وابتعث عنده فكرة جديدة فمضى يقول :

---

(١) المقتبس م ١ ص ٨٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

[وقد أذكرني هذا الرأي بأن في أمتنا من نبغوا قبل بلوغهم تلك المدة المعينة وأفادوا واستفادوا من ثمرات عقولهم . ولا يحضرني الآن من أهل الغرب إلا اسم الشاعرين الانكليزيين كيت وشيلي اللذين قضيا في نحو الثلاثين من عمرهما وقد راق شعرهما كثيراً من الناقدين .

أما في الشرق العربي فقد توفي ابن المقفع صاحب كليلة ودمنة وغيره من الكتب وهو في السادسة والثلاثين ، وتوفي سيبويه وهو لم يتجاوز الأربعين وقد برز في النحو حتى كان من لا يحفظ كتابه لا يعد بشيء في علم الإعراب ..] .

ومضى يكتب مقاله يتابع مثل هذه الأسماء لينتهي إلى هذه الخاتمة :

[هذا ومن يستقرِ التاريخ يجد أمثلة كثيرة للنوابغ قبل السنّ الذي ضربه الكاتب الافرنسي . على أن النفع إذا لم يحصل ممن بلغ الرشد فأحرِ به أن لا يحصل أصلاً ، وحصول النفع الحقيقي من ثمرات أعمال الكاتب قد لا يكون في الثلاثين ولا في الأربعين من عمره ولذلك قيل :

إذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يَفْخَر فليس له افتخار]

مثل هذا الموقف في مقاله : « فتيان يؤلفون » نجده وراء مقال آخر بعنوان : « عميان يؤلفون» (٢) .. بدأه كرد علي على النحو التالي : [تكاد تكون قاعدة لا تختلف أن من فقد إحدى حواسه تقوّى فيه غيرها ، فمن فقدَ بصره مثلاً تقوى ذاكرته ، ومن فقد سمعه يشتد إدراكه . ولما قرأت ترجمة هوميروس الشاعر اليوناني وعلمت أنه كان ضريراً ، وقرأت ترجمة ملتون الشاعر الانجليزي وعلمت أنه كان كذلك ، وقرأت ترجمة أبي العلاء

(١) المقتبس م ١ ص ٣١٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعري الشاعر العربي وقلت إنه كان مثلها ، وقرأت ترجمة ابن الخياط . وقع في نفسي أن أكتب مقالاً في عميان صنفوا وأجادوا أيام كان العرب يؤلفون ويجيدون . فمنهم قتادة بن دِعامة ..] ومضى يعددهم ويذكر آثارهم .

أترون إذاً إلى هذا الذهن اللمّاح الذي كان وراء صناعة المقتبس ومقالات كرد علي ؟ .

ب - ولكن كرد علي لم تكن هذه سبيله وحدها .. لم يكن يجوس ماضي العرب بهذا الضوء أو ذاك من الأضواء التي تتوالد عنده من مثل هذه المقارنات .. إنما كان يلجأ إلى الترجمة . ففي مقال له عنوانه : الجنون بالكتب (١) يكتب كرد علي هذه المقدمة القصيرة : [الغالب أن عشاق الكتب كعشاق الجمال أو هم أضلّ سبيلاً ، فتراهم هائمين خاملين لا يعون على شيء في الأرض ولا يحفلون بعظائم الأمور فضلاً عن صغارها ، يجعلون الكتب روحهم وراحهم وريحانهم ، بل فرضهم ونوافلهم وأحاديثهم وأشغالهم . وكل شيء إذا جاوز الحد انقلب إلى الضدّ . وكذلك الحال بعاشق الأسفار ، فربما جوّز لنفسه السرقة ، ولكن سرقة الكتب ، بل وربما أفتى بحِلّ ذلك لمن يستفتيه] .

ثم يكشف كيف تأدّت له هذه الفكرة فيقول : [ولقد قرأت فصلاً لأحد كتّاب الفرنجة فآثرت تلخيصه كما بلي . .] ثم يمضي في هذا التلخيص .

وقد يجاوز مثل هذه المقدمة القصيرة التي يمهد بها لموضوعه ليباشر الموضوع بعيداً عن هذه المقدمات فيقول : (٢) [من مقالة لأحد علماء الفرنسيين نشرت حديثاً في إحدى المجلات العلمية] ويتابع فيترجم المقال .

هذان نحوان استعان بهما كرد علي في صناعة مجلته .

(١) المقتبس م ١ ص ٨٥ (٢) المقتبس م ١ ص ٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حـ ـ أما النحو الثالث فقد جاء نتيجة لاهتمامه بالتراث وتطلعه إليه .. كانت تقع له المخطوطة من المخطوطات فيتحدث عنها في باب ، ويتحدث عن مؤلفها في باب آخر ، ويقتطف منها هذه المختارات في باب ثالث :

فالوهراني مثلاً « ركن الدين أبو عبد الله محمد الوهراني الجزائري » الذي كان خطيب داريا ، القرية الدمشقية المعروفة ، كاتب من كتبة الرسائل والإنشاء في دمشق ومصر على عهد صلاح الدين ، قدم من بلاده إلى الديار المصرية واتصل بالعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ومن في طبقتهما . له كتاب مخطوط اسمه منشآت الوهراني .

وقع هذا المخطوط للأستاذ كرد علي فتحدث عنه في باب « مطبوعات ومخطوطات » وقال [1] إنه [كتاب مخطوط في تسعة كراريس ظفرت به في بعض الخزائن ولا أريد أن أدلّ عليه ، إذ ما كلّ ما كتب ينبغي العناية بنشره . الكتاب جدّ في قالب هزل ، وعلم على مثال جهل ، وحقيقة في طرز خيال ، فما رأيته خلواً من شاردة تُنقل ونكتة تؤثر . . وكلام المؤلف على خلطه وضبطه يضحك العبوس، وقلما تنقبض منه النفوس ..] .

الأستاذ كرد علي يكتب هذا التعريف وكأنه يفتح الطريق لدراسة الكتاب . ثم ينقل مختارات منه لتمام التعريف به في باب آخر هو نُفاضة الجراب « ص ٥٥ » . وصفحات غيرها تحت عنوان خاص هو نكات الوهراني .

د ـ وأما النحو الرابع من الأنحاء التي كان يسلكها الأستاذ كرد علي في إقامة مجلته فذلك هو هذه المقتبسات التي كان يقبسها من هنا وهناك ،

(١) المقتبس م ١ ص ٤٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن كتابات المعاصرين بوجه خاص ومن مطبوعاتهم .. كان إذا قرأ شيئاً أعجبه أسرع إلى إثباته .. فهذه صفحات مقتبسة من فصل للمرحوم عبد الله فكري وتلك مقيدة للرافعي يقرؤها في تجارب ديوان يُعدّ للطبع فيضع لها هذا العنوان : من الغزل العصري ، ثم يذيله بقوله : من الجزء الثالث من ديوان الرافعي الذي يصدر بعد أشهر .

ألم يقل كرد علي في فاتحة مجلته معرفاً بها : « إنها نشرة تصدر على رأس كل شهر عربي تقتبس ما تتمثل فيه فائدة صالحة من كلام الثقات الأثبات من مشارقة ومغاربة وقدماء ومحدثين .. » .

ألم يقل في أعقاب ذلك : « وقد سُميت المقتبس ولكل شيء من اسمه نصيب » !

ألم يكن للمجلة من ذلك أكبر نصيب ؟ .

هـ — وليست المخطوطات وحدها هي التي كانت تُمدّ كرد علي في صناعة مجلته وإنما كانت المطبوعـــات كذلك بعض الطرق إلى تغذية المجلة .. فقد كان يظهر الكتـاب المطبوع في دمشق أو في القاهرة أو في غيرهما من عواصم العربية فيبادر كرد علي إلى قراءته .. وقلّ أن يقرأ كرد علي دون أن يكتب .. ولذلك يكتب عنـه في باب مخطوطات ومطبوعات .. يعرضه وينقده وقد يوجّه أصحابه .. ويختار منه صفحات أو فصولاً يكتبها في باب خاص هو باب « صحف منسية » .. ثم لا يهمل أن يتحدث عن صاحبه في طالعة مجلته على أنه واحد من صدور المشارقة والمغاربة وهو الباب الذي كان يصدّر به المجلة .

و ـ وليست هذه الأنحاءُ وحدها موارد كرد علي التي يردها ، ومصادره التي يصـدر عنها .. وإنما نجد في المجلة بابين هما أثر من آثار الاقتباس : اقتباس من المجلات الأجنبية سبيله الترجمة ، كما في باب سير العلم أو سير العلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمجتمع كما سماه بعد ذلك .. واقتباس من المجلات العربيـــة وسبيله القراءة والاختيار .

ومن الحق أن أقول هنا إنّ هذه المقتبسات في هذين البابين لم تكن تتجاوز الجُذى الصغيرة .. لم تكن أبحاثاً في العلم ولا عرضاً لنظرياته وإنما كانت طرائف من طرائفه . وذلكم هو الذي يفرق ما بين مجلة كرد علي وما بين المقتطف مثلاً .. ولم تكن الأسطر القليلة من هذه المجلة أو تلك من المجلات العربية أو الأجنبية إلا اشاراتٍ خاطفةً لبعض ما يكتب هنا وهناك .

ومن المؤكد أن بعض هذا الذي كان ينشر من هذه المقتبسات كان يوقد به ناراً يصطلي بها أو نوراً يهتدي به .. إن ذلك كان يمهد الطريق أمام كرد علي لتوسعة هذه الإثارات أو الإشارات . فحين نشر مثلاً نبذة صغيرة من مقال في إحدى المجلات الفرنسية عن حريق مكتبة الاسكندرية ورّثه ذلك سلسلة من المقالات بعد ذلك .

— ٨ —

وكذلك يتبدّى لنا من هذا العرض المتمهل أمران : أحدهما الأبواب الرئيسة في المجلة ، والآخر : كيف كان كرد علي يصنع هذه الأبواب .

ويستقر في نفوسنا أن الرجل كان يملك وقته وكان يملك عزمه ، وكان يملك قدرته الهائلة على أن يستثمر هذا الوقت خير استثمار ، وأن يستفيد ويفيد مما يقرأ على خير ما تكون الإفادة والاستفادة .. أو على حد تعبيره المحكم الذي استعمله ذات مرة : على خير ما يكون الاقتباس والإقباس .

واضح جدّاً أن منطلق كرد علي الأول في عمله في المجلة إنما هو قراءاته .. ثم يكون تنوّع هذه القراءات بين العربية والفرنسية والتركية ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم يكون تنوّع القراءات بين المطبوع والمخطوط .. ثم يكون استثمار هذه القراءات في الأبواب المختلفة على هذه الانحاء المختلفة : استيحاءً أو استلهاماً ، اقتباساً أو تلخيصاً ، ترجمة كاملة أو مقتضبة ، تحقيقاً أو تمهيداً للتحقيق .

وعلى قدر ما كان من قراءات كرد علي كان من كتابته .. كان أسرع الناس إلى قلمه ، وأقدر الناس على أن يجري به على الورق ، وكان قلمه أسرع الأشياء في تلبيته لا يسأله تلبثاً أو تمهلاً ، وكان أطوعَ له من بنانه .. لا أرِناً ولا صَعْبا ، وإنما كان مذللاً منقاداً .. إنه لم يكن أداة خارجة عنه يستخدمها ، وإنما أضحى جزءاً منه يتحرك به كيف يشاء ويحركه كيف يشاء .

وحين تحدث كرد علي في المذكرات ذات مرة في أنه قد تمر الأشهر لا يكتب فيها صفحة فإن ذلك لا يعني استعصاءَ القلم عليه ، وإنما يعني أنّ مزاج كرد علي كان قلقاً ، أو أنه كان يتأنى يخمّر ما يريد أن يقوله .. وإلاّ فقد آخى كرد علي أتمّ مؤاخاة بين ذاته وعمله ، بين قراءاته وكتابته .. وكأنما كانت كتاباته الكثيرة في المجلة هي الوجه الآخر لهذه القراءات الكثيرة .. كانت استجابة لها ، واستلهاماً منها ، وتطابقاً معها .

- ٩ -

وأحسب أن مثل هذه الاستجابات المتطابقة بين قراءاته وكتاباته هي التي تتيح لنا أن نفسّر ما كان قد وُجِّه من نقد إلى كرد علي .. نقد مكتوب حيناً ونقد متداول حيناً آخر .

خلاصة هذا النقد أن كرد علي كان لا يلتزم دائماً بالإفصاح عن مصادره في جزئيات ما يكتب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد وجه إليه هذا النقد في أول عمله في المقتبس ، على نحو ما سيوجه إليه بعدُ ، حين ينجز عمله الخالد في إصدار خطط الشام .

في الخطط نشر كرد علي في آخر الكتاب ثبتاً بأسماء العشرات من المخطوطات والمطبوعات التي اعتمد عليها وأفاد منها في جملة هـــذا المؤلف الضخم .. ولكنه لم يربط بين جزئيات المادة التي عرضها وتحديد المصدر الذي أخذ عنه ، أو قل لم يفصل فصلًا واضحاً بين ما يكتبه وما ينقله ..

وفي المقتبس اضطر المرحوم رشيد رضا بعد أن رّحب بالمجلة أن يقول كلاماً هـــذا بعضه : [ومنها أن المنقول في بعض المواضع لم يتميز بنسبته إلى الكتب والعلماء تميزاً ظاهراً يعرف أوله وآخره بلا اشتباه ..] (١) .

ومثل هذا الكلام ونحوه قاله أحمد زكي فيما كتب به إلى الأستاذ كرد علي : [وعندي أن الأجدر أن تترك : قال أحدهم ، وروى بعض العلماء أو أحد الأساتذة ، وتنسب القول إلى قائله مباشرة فإن هذا الباب فتح قديماً باب التلاعب في كثير من العلوم ، وكذلك اليوم فلاغُنيَة لمن يريد أن يحرم العلم عن التصريح بأسماء المنقول عنهم] (٢) .

ومضى على مثل هذا النقد الأب أنستاس ماري الكرملي فقال في خطابه لكرد علي : [عرّبتم فصلًا عن إحدى المجلات العلمية لم تذكروا اسم المجلة وهو أمر مهم في مثل هذا المقام . وكذلك لم تنوهوا باسم الكاتب الأصلي . وقد تكرر ذلك عدة مرات فأظن أن الأحسن ذكر كل جريده باسمها وكلّ مؤلف باسمه] (٢) .

---

(١) المقتبس م ١ ص ١١٢ (٢) المقتبس م ١ ص ٣٦٧ – ٣٦٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأيّاً كان الأمر في هذا اللقاء بين قراءات كرد علي وكتاباته ، وأياً كانت وجهته في العزو والإسناد .. فإن الذي ننتهي إليه مطمئنين أن مجلة المقتبس كانت مجلة كرد علي الخاصة يصنعها هو بنفسه وعلى عينه .

ولذلك قلّ أن نجد فيها ، وفي سنواتها الأولى بخاصة في القاهرة ، كتاباً آخرين .. هنالك قصائد الرصافي والزهاوي وبعض مقالات لأصدقائه وإخوانه من مثل أحمد زكي باشا وتيمور باشا ، أو لبعض مريديه من مثل الأستاذ محمد لطفي جمعة .. وهنالك بعض الأسماء التي لم تكن معروفة والتي كانت تكتب له من امريكا أو من غيرها .. وهنالك وهنالك .. ولكن كان هناك دائماً كرد علي الذي يكتب ويلخص ويقبس ويترجم حتى يكاد المرء لا يفرق — لولا بعض الأبواب التي سأشير إليها — بين المجلة وبين صانعها .

— ١٠ —

لقد تحدثت عن المقتبس كيف صنعه كرد علي دون أن أتوقف عند البواعث الأولى . وما أشد ما تمنيتُ لو اكتمل عندي تمثّلُ هذه البواعث التي دفعت به نحو هذا العمل ... لقد جاء كرد علي مصر يحرر في صحفها ومجلاتها .. كتب في المقتطف والمؤيد والظاهر واكتسب شهرته من خلال هذه المقالات . فلماذا آثر ، بعد ذلك ، أن يتفرّد بمجلة ينشئها وحده ، ويصدرها وحده ، ويحمل عبء مسؤولياتها المادية [١] والمعنوية وحده .. ماذا كانت العوامل التي دفعت به في هذا الاتجاه الصعب ، وما الذي حمله على هذا الاختيار العسير ؟

(١) في آخر السنة الثانية وأول السنة الثالثة حديث عن التكاليف المادية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لستُ أملك رأياً قاطعاً ، ولم أتبين الفكرة الواضحة وإنما هو حدس من الحدس الذي يقع عليه المرء أو يقع له من خلال ما يقرأ ، ويتناهى إلى أعماقه تناهياً لا يدري كيف ابتدأ وأيّة سلك ولا كيف نما من خلال التتبع .

إن كرد علي — وقد رأى هؤلاء الذين هاجروا قبله إلى مصر وظفروا فيها بالمكانة والشهرة عن طريق الصحافة — لم يرَ أنه دونهم قدرةً .. لعل شيئاً من شعور المنافسة أو الإحساس بالغيرة كان بدأ يحوك في صدره.. والنجاح ، كما يقولون ، يدفع إلى نجاح .. وقد أرادته صحف ومجلات كثيرة على أن يسهم فيها ، ومقالاته لم تكن سبباً لشهرته هو فحسب ولكنها كانت إسهاماً في تغذية هذه المجلات وشهرتها .. فلعله من هنا بدأ يفكر في عمل مستقل ولعله كان ينظر في هـذا العمل المستقل بعين متطلعة إلى المقتطف يريد أن يوازيها أو يغلبها .

إن حديثه عن المقتطف في مقالة عقدها له في المقتبس [1] يشي بذلك وينمّ عنه ، ولست أريد أن أثبت المقال أو أن أقبسه كلّه .. ولكني أتمنى على الذين يُعنَوْن بدراسة كرد علي أن يقرؤوا هذه المقالة فقد ينتهون من ذلك إلى مثل ما انتهيت .

ومع ذلك فإليكم بعض الفقرات :

« .. قلّ في المشاريع ، ولا سيما العلمية منها ، ما سار به صاحبه على سنة الارتقاء الطبيعي ، ولذلك قلّ في أربابها المعلمون . أما صاحبا المقتطف فعملاً أولاً تحت نظارة أستاذ لهما عظيم هو الدكتور كرنيليوس فانديك

(١) المقتبس م ١ ص ١٧٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأميركاني . ولم يخرجا عن حدّ الخطة التي رسمها لهما فكانت صفحاتها بادىء ذي بدء قليلة ، وكتابتها لاتخلو من ضعف، وموضوعاتها بسيطة تتناولها أذهان الصبيان لأدنى نظر . وعلى ما قام من المنشطين لعملها في ذلك العهد من رجال البلاد لم يبلغ المقتطف الغـــاية التي كانت ترجى له من الانتشار وكثرة الانتصار » .

« ... ولقد خيف عليه السقوط أولاً .. ولو لم يمزجا عملها بشيء من التقية والمداراة ويهضما النفس في الأحايين لكانت أقل صعوبة يلقاها مثل هذا المشروع تكفي في إخفاق المسعى .. ولو ظل المقتطف يقبل المناقشة فيما يكتبه لانصرفت وجهته عن الكليات إلى الجزئيات وضاع المقصود من إنشائه فقد نصح لهما أستاذهما بالعدول عن خطة المماحكات . . ومنذ ذلك أخذت كتابة المقتطف وأبحاثه ترتقي مع الزمن بكثرة مران القائمين عليه .

« .. وقد عرف المقتطف بحسن التنسيق ولطف الأداء .. كما عرف بحسن الاختيار وانتقاء الموضوعات المفيدة . . وجرى في توقع المناسبات على قدم المجلات الأميركية والانجليزية من إعداد مقـالات للنشر في كل آن ومقالات لا تنشر إلا في أوقات خاصة .. ويقول منشىء المقتطف إنه يؤلفه من مجلات كثيرة لأهل الاختصاص من علماء السكسونيين .. » .

« بقي أن أقول إن للمقتطف مغامز لا بأس بعرضها عليه ألا وهي ظهور الغرض في مطاوي ما يكتب .. » .

- ١١ -

وسلوكية كرد علي في المقتبس سلوكية رائعة تلفت النظر حقاً . . والعهد بالناس أنهم لا يحبون النقد .. فإذا بدت منهم رغبة فيه آثروا أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يكون همساً لا يسمعه الآخرون .. ولكن كرد علي كان يتسلح بخلق رفيع عالٍ .. فقد كان حريصاً، منذ العدد الأول ، على أن يعرف آراء الناس في عمله ، وأن ينشر هذه الآراء .. والعجب المغرب أنه لم ينشر من ذلك ما يتصل بالتقريظ أو الثناء .. وإنما كان يعمد بين عدد وعدد إلى أن ينشر ما يوجه إلى المقتبس من نقد فحسب . فهذا هو في خاتمة العدد الثاني مثلاً ص ١١١ يحمد ويشكر الذين كاتبوه وشافهوه « من رجال الأمة أجمل شكر وحمد لما تكرموا به من عبارات التنشيط على نشر المقتبس سواء كان بالخطاب أو بالكتاب ، كما نثني أطيب الثناء على الصحف العربية على اختلاف نزعاتها وموضوعاتها التي ذكرت صدور هذه المجلة ونوّهت بها . ونسأل الله أن يحقق آمالهم وآمالنا ويصلح أحوالهم وأحوالنا .

وهنا ننشر تتميماً للفائدة ما تفضل به صاحب المقتطف وصاحب المنار الغراوين من نقد المقتبس عملاً بالتماسنا منها .. وهاك ما قالوه ... » .

كرد علي إذن كان يطلب النقد طلباً ويلتمسه التماساً .. وكان يذيع هذا النقد في مجلته ذاتها على ما قد يكون فيه من قسوة . وحسبك أن تنظر فيما نشره من نقد المقتطف له لترى أنه نقد يسيرٌ ما كان أجدره بأن يتجاوز .. وحسبك كذلك أن تنظر فيما كان من نقد المنار لترى كيف وصفه « أو وصمه » بأنه مبتدىء ، وإن كان وقع على نقـــاط جديرة بالنقد حقاً .

وتَنِمّ العبارات التي كان يكتبها محمد كرد علي في تقديم هذه الانتقادات عن تواضع علمي جدير بالتقدير له والثناء عليه .. وعن رغبة جامحة في الإفادة من كل ما يقال عنه أو ينبه إليه .. إنه يقول في تقدمة ما نشر من رسائل منتقديه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وفي مأمولنا أن نصلح ما يمكن إصلاحه من وضع هـذه الصحيفة وموضوعاتها على الزمن ، حتى يجيء منها ما يفيد ويروق بعون الله وتسديده. ورجاؤنا إلى من أوتوا العـلم الرجيح ورزقوا ملكة النقد الصحيح أن يُقْبسوا المقتبس من أنوارهم كلما عنّ لهم ذلك . ورحم الله من أهـدى إليّ عيوبي[1] .. »

ويبدو أن الذين كتبوا إلى المقتبس يُبدون آراءهم فيه أثاروا عنده حيْرته وحمّلوه من ذلك ما لا سبيل إلى تنفيذه . ويقول هو عن ذلك : « ولقد اختلفت آراء المفكرين والعالمين : فمن قائل باختصار مقالات المقتبس ، ومن قائل بإشباعها وتوفية كل مبحث حقه من الشـــرح . كما اختلفت المذاهب في أسلوب إنشائه : فمن قائل إنه يصعب فهمه على غير المتعلمين أو دون الرجوع إلى المعاجم كما قـال بعضهم ، ومن مصرّح أن لغة المجلات ينبغي لها على كل حال أن تكون أرقى من لغة الجرائد لأن قراءها من الخاصة أو ممن يدانيهم . ويرى الفريق الأول أنه لا بأس باستعمال ما استعمله العرب من التراكيب أيضاً ويرده بعضهم ويفنّده . واعترض بعضهم على استعمال الإشارات الجديدة - يريد إشارات التنقيط — قائلين إن ذلك لا يجدر إلا بكتب الأطفال والنساء ، واستحسنها بعضهم وأراد الإكثار منها للإفهام . ورأى بعض العلماء ضبط الكلمات المبهمة .. »[2] .

ولم يتردد كرد علي أن يعترف جهاراً بأخطائه في استعمال بعض الألفاظ والتراكيب ، فقد بدأ ذلك حين نشر رسائل هؤلاء المنتقدين له في مجلته . من مثل رسالة الأب الكرملي وفيها : « وقلتم : التوابل السلَطات

(١) آخر الجزء الثالث من المجلد الأول ص ١٦٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٦ — ١٦٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والصحيح أن هذه غير تلك ، وذكرتم اسم الفنطيس بمعنى البرميل ولا مشابهة بين الاثنين وكلاهما معروف عندنا باسمه ومميزاته ، وذكرتم النيترات باسم البورق وليس الأمر كذلك وبينهما بون بيّن »(١) .

— ١٢ —

وبعد ، فهل أخرج كرد علي المقتبس أم كانت المقتبس هي التي خرّجته ؟. ما هي هذه الصلة بين المجلة وبين صاحبها .. أيها كان يعمل في صاحبه ويؤثر فيه وكيف كان هـذا التأثير وما مداه ؟ . وهل بقي كرد علي في حدود المجلة أم هو جاوز ذلك إلى بعيد ؟.

في تقديري أن من أروع ما كان من كرد علي أنه استطاع أن يتسامى على عمله في المقتبس وأن يتجاوزه .. لم تقيد المجلة هذا الرجل الكبير .. بدأ بها ولكنه انتهى إلى الانفصال عنها .. إنه استطاع أن يغادر حدود الصحفي صاحب المجلة إلى أن يكون العالم .. ولم يصنع كرد علي المقتبس فحسب وإنما صنع نفسه من خلال المقتبس .

إن الصحافة — وحتى الصحافة الأدبية — تستنزف أصحابهـا ، تسترقّهم وتمتصهم .. إن لها في الاسترقاق سَطْو ظالمٍ ، وفي الامتصاص شرّه قطعةٍ كبيرة من اسفنج مكْروب .. وكثيرون أولئك الذين يقعون فريسة لها .. فريسة لعملها اليومي المنهك ، وطعماً سائغاً لهذه الاستمرارية التي تطبع الصحافة والتي تفرض على أصحابها قيودها وسدودها .. هم ينشئونها ويضعون خطتها ، وهم بعد ذلك يقعون أسرى لهذه الخطة .. أسرى لا يُفتكّون ولا يرغبون هم أنفسهم أحياناً في هذا الافتكاك .. اليـومُ

(١) المقتبس م ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقودهم إلى اليوم الذي بعده ، والأسبوع يحكيم قيدهم بالأسبوع الذي يليه .. والشهر يحبسهم ، لايخرجهم إلا إذا كان محاقه ، ثم يسلمهم في ليلة مظلمة ليلاء ، إلى الشهر الذي يلد منه .. إنهم يعيشون في هذه الحلقة الدائرة ..

ولكن كرد علي الذي كان شديد الإحساس بذاته ، على تواضع حين يطيب التواضع .. استطاع أن يتسامى على الصحيفة أو على المجلة التي أنشأها .. لقد عرف كيف يصنع الشرنقة من الحرير دون أن يختنق فيها .. وخرج منها لينسج طرازاً آخر أو لنقل طرزاً أخرى .. ولقد استطاع أن يكون حجر الأساس الذي يرفع البنيان دون أن يخفيه البنيان .

صفحات المقتبس كانت تجربة في حياة كرد علي في فترة معينة من أجل حياة كرد علي في الفترات التي جاءت بعدها ... والمقال فيها لم يكن مقالاً كما هو الشأن في أكثر المجلات ، ولكنه كان بذرة كتاب .. بذرة منتقاة ونقية .. والتعريف بالمخطوط والوقوع عليه كان بداية تحقيقه .. وترجمة صفحات من كتاب جديد أجنبي يطّلع عليه كان طريقاً إلى ترجمة الكتاب كله .

بل لقد كان المقتبس مضماراً لكرد علي بالذات .. ألم يمارس فيه الترجمة العلمية ؟.. ألم تكن فيه بدايات عملية التحقيق .. ألم يكن باب المخطوطات والمطبوعات نافذته على التراث القديم من نحو ، وعلى متابعة مايصدر من كتب والنظر فيها من نحو آخر ؟ .

لقد استحالت مجلة المقتبس بعد ذلك مجموعة من الكتب .. بل إني لأتساءل ما الذي يبقى من المقتبس ، من عمل كرد علي نفسه ، إذا نحن رفعنا هذه الأشياء التي آلت أن تكون كتباً ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المقالات التي كتبها أصدقاء المقتبس .. تلك لأصحابها .. وباب سير العلم والمجتمع ، أو باب تدبير المنزل في بعض الأعداد الأولى ، بابٌ تتجاوزه السنون ، ثم هو لم يكن يزيد على النتف الصغيرة والتي كان هدفُها ، آنَ نُشرت ، الإثارةَ والارتباط بحركة التقدم ، في التطبيق العلمي بأكثر مما كان هدفُها متابعة حركة العلم المجرّد .

أما ما بعد ذلك فإننا نجده في « أمراء البيان » ، ونجده في « رسائل البلغاء » ، ونجده في « القديم والحديث » ، ونجده في « غرائب الغرب » ، ونجده في كتاب « تاريخ الحضارة » .. ولعل بعض ذلك مما نجده في الإسلام والحضارة العربية .

إن ما لم ينشر من كتابات كرد علي في المقتبس على هيئة كتاب ، من مثل ما كتبه في باب مطبوعات ومخطوطات ، استقر في ضمير كرد علي ودخل في مؤلفاته الأخرى على نحو غير مباشر ..

أتراني أستطيع أن أقول بعد ذلك إن كرد علي لم يكن يصنع مجلة وإنما كان يمارس صناعة التأليف التي سيكون لها بعد ذلك في حياته شأن أي شأن .

- ١٣ -

ولكن كرد علي كان في الواقع يصنع مجلة .. كانت المجلة للآخرين يفيدون منها .. كانت لهـــذا الجيل الذي بدأ يتلمس المعرفة في صورها الجديدة .. سواء في ذلك المعرفة العلمية أو المعرفة الأدبية ، وسواء في ذلك الدراسات الإنسانية المعاصرة في اللغات الأجنبية أو الدراسات الإنسانية في كنوز الأجداد ومخلفاتهم .

ويحدثني الذين كانوا يعاصرون المقتبس كيف كانوا يترقبون صدوره ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكيف كانوا يتلقفون أعداده ، وكيف كانوا يتحلقون حول مقالاته وأخباره .. لقد داخل المقتبسُ حياة جيل كبير من قدامى المثقفين ، فأضاء لهم الطريق وقرن في حياتهم بين معارفهم التي كانوا يعرفون وبين المعارف الجديدة التي أتاحها لهم .. وداخل كذلك حياةَ جيلٍ كبير من ناشئة المثقفين آنذاك فأوقد في صدورهم العزم وابتعث عندهم العمل في نطاق الثقافة العربية ، تأليفاً أو نشراً أو تحقيقاً .. ولقد كان للمقتبس في نفس قرائه مثلُ الذي كان له في نفس صاحبه .. ولعلها المجلة الوحيد التي كان ينمو صاحبها وكان ينمي مَنْ حوله .. كان يسمو هو وكان يُسْمي من حوله .. يرتفع درجات ويرفع الآخرين إلى قريب من هذه الدرجات .

— ١٤ —

تلك خطوط أولى في محاولة دراسة المقتبس . إني أضع ما انتهيتُ إليه موضع المناقشة .

وكنتُ على أن أعالج المقتبس المجلة والمقتبس الجريدة .. ثم رأيتُ أنهما عملان من طبيعتين مختلفتين .. واشتراكُ التسمية بين الصحافة اليومية والصحافة الأدبية لا يجعل منهما نوعاً واحداً .. وصدورهما عن رجل واحد لا يعني إلغاء الطبيعة الخاصة للصحيفة اليومية الإخبارية والصحيفة الثقافية الشهرية .. هنالك غايات تستقطب أحياناً جهود الإنسان في أيّ ميدان كان .. كأنْ تغلب عليه دائماً نزعة إصلاحية أو دعوة فكرية أو سلوك محدود .. ولكن ذلك لا يعني توحُّد أعماله وانصهارها كلها في شكل واحد .

ولهذا تجاوزتُ المقتبس الجريدة ووقفتُ عند المقتبس المجلة .. ثم لما مضَيْتُ أعرض المجلدات الثمانية والعددين اليتيمين بعدها ، وهي كل ماصدر منها على مدى عشرة أعوام أو تزيد توقفتُ خلالها المقتبس عن الصدور مرتين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما مضيتُ أعرض هـذا بعد العرضة الأولى استبان لي أن المجلدات الأولى التي صدرت في القاهرة تشترك مع المجلدات الأخرى التي صدرت في دمشق ، ولكنها تختلف عنها بقدر ماتتفق أحياناً .. تغيّر الرجل لا شك بعد عقد من السنين .. لقد بلغ الأربعين واكتسب تجربة وخبرة وسفراً .. فقد رحل إلى الغرب ورأى بعينيه هذا العالم الذي كان يقرأ عنه .. وقامت أحداث تاريخية خصبة من مثل إعلان الدستور العثماني ، واختلفت عليه البيئة من حوله بعض اختلاف .. فما كان في القاهرة لم يكن في دمشق على تواصله مع إخوانه وأصدقائه في القاهرة .

وكذلك استقر عندي أن من الخير لهذه الدراسة ومن الإحكام لأحكامها أن اقتصر على السنوات الثلاث التي صدرت في القاهرة .

واذن فإن الكثرة الكاثرة مما انتهيتُ إليه من نتائج ووقفت عليه من ملاحظ في هذا الذي أقوله اليوم إنما هي للمقتبس القاهري . وتطابقُ ذلك مع المقتبس الشآمي يحتاج إلى فضل تتبع وعمق قيران .

— ١٥ —

وبعد ، فقد كان علي أن أقف عند جملة من النقاط الأخرى التي أغفلتُ عامداً الحديثَ عنها كأنْ أتمهل بخاصة عند المقالات التي كان يصدّر بها أعداد المجلة والتي كان لها عنوانها الثابت : صدور المشارقة والمغاربة .. وأن أتساءل كيف كان يختار هؤلاء الصدور .. أكان ذلك عفواً من العفو أم قصداً من القصد .. أكان أثراً لما يقع بين يديه أم كان عن خطة وهدف .. على وضوح الهدف وغياب الخطة .. ولكني لم أهتد في ذلك إلى ما أطمئن إليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي المجلة كتّاب : بعضهم كان يكتفي بالحرف الأول من اسمه لم أهتد كذلك إلى معرفة بعضهم .. وليست تلك هي القضية الأولى وإنما دراسة هؤلاء وتصنيفهم تبعاً للمادة التي كتبوا فيها والموضوع الذي طرقوه ، أو تبعاً لثقافاتهم ومنازلهم تطرح بعض التساؤلات وقد تقود بعض هذه التساؤلات إلى بعض النتائج .

- ١٦ -

وعلى أن دراسة أسلوب كرد علي البياني أمر لا يستغنى عنه . وعلى أنه لا يمكن أن يستفاد من خلال ما نشر في هذه السنوات الثلاث في المقتبس فحسب .. على هذا وذاك فأنا أحب أن أشير إلى أن الباحثين متفقون على أنه خرج على السجع وثار عليه وآثر الأسلوب المرسل . ولكنه مع ذلك كان له في الكلمات التي يكتبها في بداية كل سنة ، وفي نهايتها أحياناً أسلوبٌ هو أقرب ما يكون إلي أسلوب فرسان النثر العربي .. بعضه من الجاحظ ، وبعضه من التوحيدي ، وبعضٌ من ابن المقفع ، وبعض من نثر القرن الرابع .. وكان كثيراً ما يحليه ببعض السجع .. ولكنه هذا السجع الحرّ المطلق إن صحّ هذا التعبير ، وببعض البديع الذي يظلّ يصدر عن إيثار الفكرة لا عن تغليب اللفظ . واسمعوا ما يقوله في فاتحة السنة الأولى :

« وستتنكّب — أي المجلة — في مسطورها مذاهب المذاهب والنحل ، وتتجافى عن طرْق طُرُق السياسات والدول ، حتى تصفوَ مواردها من النزعات والنزغات ، ولا يستهويها في جانب ما تعتقده الحق وازعٌ ولا مُنازع ، تتمحّض للعلم المحض فلا يتحرج من تلاوتها الموافق والمخالف ، ولا يتبرم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بها العارف والعازف ، وتنطلق في الفكر وتتجوّزُ في الاقتباس والنشر ، وتُدْرِجُ في مطاويها ما وافق أغراضها ومغازيها .. »[١] .

لقد أثار هذا المقطع صديقه العلامة الأمير شكيب ارسلان .. ذلك أن كرد علي لم يجاف السجع فيما كان يكتبه فحسب بل أنكر ، فيما كان يكتب أصدقاؤه ، أن يقع لهم شيء منه .. ولذلك أصاب منه الأمير شكيب هذه الدعابة حين كتب إليه في أعقاب قراءته للعدد الأول ؛ قال : [٢] « وآنستُ في نفسك انشراحاً ونشاطاً ، وقلةً في كمية السوداء وانحطاطاً . يدل على ذلك في مجلتك فكاهاتٌ رويتَها ، ومداعبات أثرتها ، وأسجاعٌ ملتَ اليها . متى كنت يا محمد مولعاً بالسجع ! عهدي بك لا تطيقه ، وإذا مررتَ بالجناس ولو تمثل لك واقفاً رفسته برجلك وأكْبَبْتَه لوجهه . وطالما نَقِمتَ علينا التسجيع ، وأقمت علينا من النكير بعدد أنواع البديع ، وعددتَ سَجْع الحمام من قبيل فَجْع الحمام ، واعتبرت نفائس الجناس من وساوس الخنّاس . فهانذا أسجع الآن ولا حرج عليّ منك ولا تثريب ، وأجنّس وأنت ساكت ساكن وهذا أمر غريب .. فهل هداك الله إلى الصواب الآن حتى صرت في « مذاهب المذاهب وطَرْق الطرق » ، أو هل نزغت بك نزغاتٌ جداد ، وجدّت بك أهواء لم تكن تعتاد ، أو لعلك حصرت السجع والجناس في فاتحة المجلة لأنها من المجلة كقاعة الاستقبال من البيت ، فلابد فيها من مراعاة الأمور الرسمية والسجع رسمي في المقدمات.. ولاعيب في هذه المقدمة إلا هذا السُعدان الذي في آخرها[٣].

---

(١) واقرأ بقية المقدمة .

(٢) المقتبس م ١ ص ١٦٨

(٣) كان كرد علي ختم المقدمة بقوله : سبحانه وسُعدانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لاتؤاخذني بالله عليك فلي عندك ثارات ، وبصدري من حماطة الجُنْجلان حزازات ، وأنت منصف فلا ينبغي أن يثقل عليك الحق كما يثقُل على غيرك .. الخ » .

وددتُ لو قرأتُ عليكم فاتحة السنة الثانية وفاتحة السنة الثالثة كذلك .. لكني اكتفي بهذه الإشارة إليها والإشادة بها .

* * *

وبعدُ ، فقد قلتُ إن كرد علي حين كان يصنع المقتبس للناس كان يصنع لنفسه كتبه .. أفيحق لي أن أضيف أنه كان كذلك في الحين نفسه يضع البذور الأولى لمجلة مجمع اللغة العربية ؟..

أكانت مجلة المجمع في منهجها العام وفي انشعابها على هذه الأبواب الثلاثة : المقالات ، والنقد والتعريف ، والآراء والأنباء إلاّ تهذيباً لشكل المقتبس ؟ . أكانت مجلة المقتبس إرهاصاً بمجلة المجمع أو تمهيداً بين يديها ؟ .

أفلا يحق لنا إذاً نحن الذين نفيد ونستمتع ونقبس من مجلة المجمع أن نذكر مقتبس كرد علي دائماً وأن نتوجه إليه بالتقدير المتجدد العميق .. وهل كان هذا الاحتفال إلاّ تجسيداً لهذا التقدير ؟ .

سنظل أيها السادة نحار أيها كان أكبر : قدرةُ هذا الرجل على العمل أم قدرته على التأثير المتصل الذي تجاوز حياته وعصره إلى عقود وعصور تأتي ستظلّ تشهد له وستظل تحتفل به وتفيد منه ما ذكرت الأجيالُ العربية تاريخها ولغتها .. وهل ينسى العرب تاريخهم ولغتهم ؟.. ما كان ذلك ولا كان ولن يكون إن شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net